مراجعات في الكتب

الدكتورة أحلام الزعيم : أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرّد ، الطبعة الأولى ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٨١ .

في التاريخ العربي شخصيات كثيرة أحاطتها مع مرور الزمن روايات وأساطير أدّت الى تحويلها من شخصية بشرية عادية ، الى شخصية أسطورية لا يحدها حد ولا يحيط بها اطار . ولقد تداخلت العوامل التي أدت الى هذه التحولات ، فمنها العوامل السياسية والظروف الاجتماعية والصراعات المذهبية بين الفرق الدينية المختلفة ، ومنها العوامل الأدبية المحضة ــ حين يكون الحديث عن شخصية أدبية ، كتلك التي نحن بصددها .

وأبو نواس هو واحد من تلك الشخصيات الأدبية التي حيكت حولها القصص والأساطير ، وابتعدت بها تدريجيا عن واقعها التاريخي لتصبح شخصية أسطورية تمثل البحث عن اللذة عن طريق الاسراف في شرب الخمرة والسلوك الماجن الذي يعتمد على تعشق الغلمان والتغزل بهم ، والمجاهرة بكل ذلك دون رادع أخلاقي او اجتماعي او ديني . هكذا ارتسمت صورة أبي نواس في المصادر العربية القديمة ، وفي شعره الذي وصلنا ، حتى ضاعت شخصيته الحقيقية التي كانها والتي عاشها فعلا . ويكفي ان نقرأ قصصه مع هارون الرشيد في ألف ليلة وليلة ، وأخباره المختلفة في ما كتبه عنه أبو هفان المهزمي في كتابه أخبار أبي نواس ، او ما كتبه ابن منظور في كتابه أخبار ابى نواس وفي غيرهما من المصادر لنرى الشخصية الأسطورية التي تبلورت مع مرور الزمن والتي طمست معالم الشخصية الحقيقية .

من هنا ، فان البحث عن تلك الشخصية التاريخية الحقيقية أمر في غاية الصعوبة ، لانعدام المعلومات الدقيقة ، ولتضارب الروايات وكثرة المختلق منها ، ولكثرة الشعر الذي نسب تعسفا لأبي نواس ، بعد أن أصبح رمزا للهو والفجور ، كما يتضح لكل من يقرأ كتاب الفكاهة والاستئناس في مجون أبي نواس .

ولقـد أخذت الدكتورة أحلام الزعيم على نفسها أن تخوض غمار تلك الدرب الشائكة المليئة بالمزالق الخطرة لتنفض عن أبي نواس كل ما علق به من شوائب عبر التاريخ، ولتعيد له صورته الحقيقية، ليعود أديبا سويا له آراؤه الحياتية ومبادؤه وشعره الواقعي الذي يعكس حياة مليئة بالأزمات والتوترات المتعاقبة . ولا يخفى أن محاولة الدكتورة الزعيم فيها الكثير من الجرأة والتحدي، بقدر ما فيها من محاولة قلب مفاهيم كانت مألوفـة لفتـرات طويلـة .

والواقـع ان البحث العلمي الحديث قد تناول شخصية أبي نواس بكثير من الجد، بهدف كشف حقيقته، واظهار أهم الدوافع التي كانت وراء سلوكه كما وصف في أخباره، وبهدف تفهم شعره ومحاولة التوفيق بين التناقضات الكثيرة التي ظهرت في مواقفه وانعكست في أشعاره . ولقد كان للمحاولات العديدة التي قام بها باحثـون كبار، امثال الدكتور طه حسين في حديث الأربعـاء، وعباس محمود العقاد في كتابه أبي نـواس، والدكتور محمد النويهي في كتابه نفسية أبي نواس، بالاضافة الى الكثير مما كتب عن هذا الشاعر الفـذ، أثر بالغ في تسليط الضوء على شخصية حيّـرت الباحثيـن في سلوكها وفي أدبهـا . ولقد أفادت الدكتورة أحلام الزعيم من هذه البحوث المتعددة، وناقشتها، وأخذت منها ما ينسجم مع الصورة التي حاولت أن ترسمها لأبي نواس، كما حاولت دحض ما لا يتفق مع هذه الصورة بالأدلة المختلفة .

يقـع البحث الذي نحن بصدده في ٢٤٠ صفحة، ويتألف من أربعة أبواب رئيسية، تعقبها صور لبعض صفحات مخطوط ديوان أبي نواس الذي عثرت عليه المؤلفة "لدى بعض فئات الشيعة الباطنية، وفيه .... اشارة واضحة الى ما يحظى به أبو نواس من مكانة كبيرة لدى هـذه الفئـات" (ص ٢٤١) .

ويظهـر في صورة الصفحة الأولى من مخطوط ديوان أبي نواس ما يلي : ديوان القطب الرباني حسن ابن هاني عليه صلاة الفرد الصمداني شرّف الله العلي مقامه وأعلا قدره وشانه، وهو يشتمل على مائة واثنين وسبعين قصيدة من منظوماته، نفعنا الله بهم، وهو هذا الديوان المبارك، وبالله المستعـان ..

في هـذه الكلمات ما يضعنا مباشرة أمام التحدي الكبير والتناقض الهائل بين تلك الشخصية الماجنة المستهترة بكل القيم ـ كما ارتسمت عبر التاريخ ـ وبين كونها "قطبا ربانيا" كما تعتقد بعض فئات الشيعة الباطنية . وهذا يعكس مدى الجهد الذي قامت به المؤلفة في محاولة التقريب بين هذين القطبيـن المتنافريـن ! ولقد

قسمت المؤلفة بحثها الى أربعة أبواب تناولت في الأول منها نشأة أبي نواس ومكانته بين رجال عصره، ثم حملة التشهير ضده، ثم تشيعه، في ثلاثة فصول متتالية .

أما نشأته كما تراها المؤلفة فهي نشأة عادية، في بيت فقد الأب، وبقيت الأم ترعى طفلها وتعمل على تثقيفه أوسع ثقافة . اما علاقته بوالبة الأسدي فلم تكن الا بسبب التشيُّع الذي ربط بينهما . وما قيل عن مجون الشاعر وميله للغلمان هو غير صحيح، ذلك ان في ديوانه أبياتا "تؤكد ارتباطه بأسرة، كما تؤكد بأن له ابناء قد عز عليه أن يفارقهم" (ص ١٩) .

وتعزو أحلام الزعيم تشويه شخصية أبي نواس لاثنين "من أكبر حاسديه وأعدائه هما أبان اللاحقي، وعنان جارية الناطفي (ص ١٨) . ثم تضافر على تشويه سمعته آخرون، رتبتهم المؤلفة في أربعة اتجاهات :

ا ـ أعداؤه الذين كان لهم موقفهم الصريح المؤيد للسلطة الحاكمة والمعرض بآل البيت .

ب ـ أصحاب المكانة الاجتماعية العالية الذين تظاهروا بالعفاف وقالوا شعر المجون ونسبوه لأبي نواس ليبقى اسمهم شريفا .

جـ ـ شخصية أبي نواس الدمثة اللطيفة العابثة أدت الى أن ينسب له كثير من النوادر والحكايات والسلوك الماجن والشعر المبتذل .

د ـ ثورته على منهج القصيدة وبنائها الفني جعل أنصارها يقومون بحملة معاكسة ضده وضد مذهبه الشعري الجديد (ص ٢٩ ـ ٣١) .

ويتضح بعد هذا أن المؤلفة تنفي الشعوبية عن ابي نواس ـ خصوصا في ثورته على مبنى القصيدة ـ "لأن هجومه لم يكن منصبا على العرب وانما على الأعراب"، ولأنه شاعر متحضر يجفو حياة البادية (ص ٣٢) . كما تنفي عنه المجون الحقيقي، ونرى في مجاهرته به تعبيرا عن حاجات روحية دفينة ; فالمجون ـ حين يخرج عن معناه الحقيقي "يغدو تارة اسلوبا من أساليب الظرف او السخرية، وتارة غطاء لأفكار ومواقف لا يجرؤ معتنقها أن يبوح بها (ص ٣٩) . هذه الأفكار والمواقف التي لم يجرؤ أبو نواس على البوح بها هي تشيعه وخيبة أمله من العباسيين الذين غدروا بشركائهم فى الثورة على الأمويين، واستأثروا بالخلافة . اما تقربه من الخلفاء العباسيين فتعتبره المؤلفة من "التقيّة"، لانه كان مكرها على مجاملتهم واسترضائهم دفعا لشرهم عنه (ص ٤٢) . أما الخمرة التي شربها وجاهر بشربها فقد خدمت أمرين :

أولا ، انها خففت من حدة أزمته الروحية ; ثانيا ، ان شعره فيها كان يهدف الى تعرية الخليفة امام الناس، والمقصود هنا الخليفة الأمين الذي عاش معه ابو نواس آخر سنوات حياته وأفضلها كما هو معروف .

وبالاضافة الى المصادر الشيعية العديدة التي اعتبرت أبا نواس من كبار الشيعة ، أبرزت المؤلفة ما في شعره من اشارات ورموز شيعية ، وأضافت :

"واننا اذ نسوق هذه المعلومات ، فاننا نريد ان نشير ... الى ما كنا لمسناه من تعظيم واحترام لأبي نواس لدى الشيعة الباطنية التي تلتقي وأبا نواس في تعظيم وتقديس آل البيت ، وفي الانتماء الواحد الى الامام الباقر . وان نسخة المخطوطلشعر أبي نواس والتي وجدناها لدى بعض الباحثين لتنهض دليلا على ما يتمتع به أبو نواس من مكانة لدى هذه الفئات . واذا ما عرفنا أن تلك الفئات التي تحافظ على قصائد ابي نواس الى جانب قصائد لكبار علمائها من المتصوفة كالحسين بن حمدان الخصيبي والحسن بن المكزون السنجاري والمنتجب العاني ، ندرك قدسية المكانة التي يتمتع بها ابو نواس لديهم" (ص ٥٢) .

وعليه ، فأبو نواس شيعي من المرجئة ـ ولا تناقض في هذا ; وهو ثائر رافض ، وشعره في الخمرة هو وسيلة لا غاية ، وهذا يربطه بالصوفية .

أما الباب الثاني ، وعنوانه "الغربة والحضور عند ابي نواس" فتتناول فيه المؤلفة شعور أبي نواس بالغربة ، وتعزو ذلك الى أن القرن الثاني كان فترة حرجة في التغيير الذي رافق الانقلاب العباسي ، والى ان أبا نواس شاهد خيانة العباسيين لشركائهم العلويين ، كما عرف التناقض في سلوك العباسيين ، المعلن منه والمخفي . لذلك كله لجأ الشاعر الى الخمرة بحثا عن العزاء وتبديدا للغربة ومواجهةللمجتمع يفضح بها أساليبه في التستر والنفاق والرياء ومن خلال الخمرة التقى أبو نواس "مع المتصوفة والوجودية على حد سواء" (ص ٧٤) .

وتبرز المؤلفة "ملامح التصوف في شعر أبي نواس" و "ملامح الوجودية عند أبي نواس" في الفصلين الثاني والثالث من الباب الثاني ; فبعد أن تشير الى رموز المتصوفة في شعر الخمرة عند أبي نواس تقرر "ان خمرا تحمل هذه الطاقة الروحية الهائلة ، وتصل في رمزيتها واشراقها الى هذا الحد المبدع هي بلا شك خمرة خاصة ، وهي رمز أكثر من كونها شرابا" (ص ٨٠) . وعلى ذلك فأبو نواس قريب من روح الاسلام رغم المبالغة في اعلان اللهو والعبث ; ويلتقي مع الصوفية ، بالاضافة الى

الرموز والمصطلحات ، بالتسامح مع بقية الأديان . كما يلتقي معهم بالقلق والتعلق بالصبر والرجاء؛ وعليه، فلا يمكن أن يكون أبو نواس شعوبيا ـ كما اتهم ـ ذلك انه تمتع بصفات خاصة تنفي عنه الشعوبية،وهي حسب ترتيب مؤلفة الكتاب :

ا . نزعة انسانية شاملة؛

ب . ايمان بضرورة التأثر بالحضارات واستيعابها؛

جـ . تحرر فكري ؛

د . ايمان بالتجديد .

من هذه صفاته لا يعتمد على التعصب الضيق ، بل على نظرة انسانية شاملة تؤدي الى تقدير الايجابيات اينما كانت ـ لذلك تمجيد ابي نواس للفرس واعتبارهم (بني الأحرار) هو تمجيد لفكرهم وحضارتهم ونزوعهم الى التحرر (ص١١٣) .

أما ملامح الوجودية عنده فتبرز في رفضه للمعايير الفنية لقصيدة الصحراء وطرحه بديلا لها، وفي اصراره على تحقيق وجوده حين يصر على اختيار حياته وأصدقائه . ويصر أبو نواس على الخطيئة ايضا ، وهذا الأمر "اذ يجعله أكثر حرية وأكثر امتلاء بالوجود يجعله أيضا أكثر ايمانا وأكثر التحاما مع المطلق ملتقيا مع كيركجارد الذي يرى أن شعورنا بالخطيئة ليس شيئا آخر سوى شعورنا العميق بوجودنا ، وان الذات تؤكد نفسها في الخطيئة باعتبارها موجودا مستقلا عن الله، ويؤكد أن الخطيئة هي التي تقودنا الى أعتاب الوجود الديني الصحيح (ص ١٣١) .

اما فلسفة أبي نواس في الحياة فتتلخص في أنها اتّصال مطلق بها وانفصال حتى الغربة عنها" (ص ١٤٠) ، وعلى ذلك فموقفه ايجابي من الزمن ، وهذا يتجسد في اقباله على الحياة . وفي تغنيه بالحب وتمجيده للجمال وميله الى الظرف والدعابة . وتخصص الدكتورة أحلام الزعيم الباب الثالث من بحثها للخمر والغزل عند أبي نواس . ولعل أفضل ما يمثل رؤيتها للخمرة عنده قولها : لم تكن الخمرة عند أبي نواس تمثل حاجة جسدية ونفسية فحسب ، بل كانت محرضا لأفكاره وباعثا لابداعاته ومرآة يرى من خلالها تحولات العالم وجماله، كما كانت مفجرا لثورته وتمرده على الأعراف الاجتماعية والشعرية (ص ١٤٧) .

وحين تعرض الباحثة لمجون أبي نواس، فانها تجهد في اقناع القارئ أنه لم يكن ماجنا ، او أن مجونه كان مقصودا على غير ما حمل عليه; فتتساءل : لماذا لا نفترض بأن يكون ابو نواس من خلال مجونه انما يعبر عن رغبات شاكية تعبر عن نزوعه

الى حيوات أخرى ظلت محرمة عليه؟ (ص ١٤٩) . هكذا ترفض الدكتورة الزعيم أن يكون أبو نواس "ماجنا بالفعل او عربيدا متهتكا" (ص ١٥٠) وترى أن مجاهرته بالمجون والتهتك تدل على اعتداده بما كان يعتنق من مذهب حر متميز، كما كانت ترمي الى فضح المجون الباطني الذي كان الخلفاء والأمراء في عصره يعيشونه، ولكنهم يتظاهرون بالتقوى . وعليه فان أبا نواس واحد من الذين نموا في ظل تيار التناقض، وواحد من الذين "استطاعوا ان يمهدوا فيما بعد للثورة العلنية ضد نظام القمع والاستبداد الذى تفرضه السلطة العباسية، كثورة الزنـج وثـورة القرامطـة" (١٥٣) .

أمـا خمرة أبي نواس التي حيرت الباحثين فتراها الدكتورة الزعيم وسيلة التجديد الشعري عنده، كما انها هي التي جعلته رائدا للمتصوفة . ذلك ان رغبة أبي نواس في الثورة والتغيير لم تتيسر في المجال السياسي، لذلك كانت ثورته الفنية بديلا عن ثورته السياسية وحلمه في التغيير . اما مجونه ــ او تظاهره بالمجون كما ترى الباحثة ــ فكان في المجال الفني وسيلة الى جعل الشعر يترجم للواقع والى تأصيل نظرته في الفـن . ومن خلال بحثها هذا تنفي الباحثة آراء باحثين آخرين، كرأي الدكتور محمد النويهي الذي استخدم التحليل النفسي للوصول الى حقيقة الشاعر، واعتبر ان تعلقه بالخمر هو نتيجة "نزوعه الباطني نحو أمه" (ص ١٦٠) .

وكمـا نفت الباحثة عن ابي نواس ما نسب له من سلبيات، فانها تنفي ان يكون قد تغزل بالغلمان ايضا، معتمدة في ذلك على أنّ غزله هذا متشابه ومفتعل وخال من الحرارة والصدق، وما هو الا مجاراة لعدد من الظرفاء الذين كانوا يتغزلون بالمذكر . مقابل ذلك، ترى الباحثة صدق عاطفة ابي نواس في حبه لجنان، وهو ما يجعلها ترى التغزل بالغلمان اما تظرفا واما تقية او انه شعر لم يقله أبو نواس، وانما حمل عليه للاسـاءة الى شخصـه (ص ١٨٨) .

وقـد خصصت الدكتورة أحلام الزعيم الباب الرابع والأخير من بحثها لزهد أبي نواس وأبعاده الفنية والنفسية، تناولت فيه اتهام الشاعر بالزندقة لتخلصه من هذه التهمة وترى فيه زاهدا ايجابيا لا يحرم الطيبات التي أحلها الله ولا يدعو الى الاعراض عن الحياة بحجة الخوف من الموت او بحجة اكتساب الآخرة التي هي الهدف الحقيقي للزهاد (ص ٢٣٢) . اما اظهاره للزندقة فليس الا تظرفـا .

بعـد هذا العرض السريع لمحتويات الكتاب نصل الى خاتمته التي لخصت فيها الباحثـة شخصيـة ابي نـواس بقولهـا :

لقـد شق بموهبته عصا الطاعة على المجتمع ، واستخدم موهبته أداة لهدم كل بناء فني او روحي او اجتماعي يتعارض مع حريته وانطلاقاته الروحية وتوقه المتصل الى الكشف والتعمق في أسرار الحياة والكون واستخدام جرأته الروحية ليعري نفاق السلطة والمجتمع وضآلة النفس أمام الاطماع وأمام القيـود والأعراف والتقاليد والموروثات . ولكن بقدر ما ارتقت بأبي نواس موهبته باتجاه قمم الابداع ، عرضته للكيد والتشهير والاتهامات الكثيرة" (ص ٢٣٩) .

هكـذا رسمت الدكتورة أحلام الزعيم شخصية ابي نواس; وهي شخصية فيها كثير من الصفات الجديدة التي تناقض تماما ما عرف عنه . فأبو نواس بعد هذا البحث هو فيلسوف كبير وفنان كبير . فيلسوف بفكره وحكمته وثورته ، وفنان بأساليب تعبيره التي تحتمل مستويات مختلفة من التفسير . هو مفكر كبير لانه يرى آفات مجتمعه السياسية والاجتماعية ، فيتخذ منها موقف المصلح المخلص ، وهو فنان كبير يستخدم الأساليب المختلفة ليصل الى الجمهور فيقنعهم بصحة مواقفه ، ولا يتورع حتى عن تصنع المجون والتظاهر بالزندقة والتغزل بالغلمان ، لأنها أساليب العصر . وهو مع هذا باطني التفكير والسلوك ; ذلك ان كلا من سلوكه ومواقفه وشعره تحتمل تفسيرين : ظاهرا عاديا وباطنا هو الجوهر الذي اراده الشاعر . فالمجون والزندقـة والتغـزل بالغلمان سلوك ظاهري غير مقصود لذاته . اما الباطن ، او الجوهر ، فهو ثورة سياسية وتعرية للمجتمع وريادة لتيارات سياسية ـ اجتماعية ـ دينية تبلورت تدريجيا وظهرت حين أتاحـت لهـا الظروف أن تظهـر .

هـذا هـو أبو نواس في هذا البحث الجديد الجريء . ولنا الآن ان نسأل : هل يقتنع القارئ تماما بنتائج هذا البحث ، ام انه يقف حائرا متسائلا عن مدى الصحة في العـرض والاستنتـاج؟

لعـل أهم ما يلفت الانتباه في هذا البحث هو محاولة التوفيق بين التناقضات الكثيرة في حياة هذا الشاعر الكبير . فأبو نواس شاعر ماجن ومتصوف صادق ; وهو ثائر على العباسيين بسبب معاملتهم للعلويين ، وهو شيعي مخلص ، ولكنه في نفس الوقت قريب جدا من العباسيين ، حتى يصبح شاعر الأمين المفضل ; وهو في مجونه وتهتكه يشرب الخمرة ويفتن بها وبكل ما تثيره من مشاعر وأحاسيس ، وهو مع ذلك يلتقي مع المتصوفة بالرموز والصفات التي يصف بها الخمرة ويحولها الى خمرة حقيقية .

تقـول الباحثـة : "... هكذا يكون المجون عند أبي نواس تعويضا عن غياب

الحياة، بل يصبح هو نفسه الحياة" (ص ١٣٤) . وعند عرضها للمجون في القرن الثاني خلصت الى أن جماعات وجدت في تلك الفترة "كانت تتظاهر بالمجون"، وتتساءل : أليس من المعقول ان يكون أبو نواس واحدا من هذه العصبة الظريفة والتي قرنت المجون بالظرف، وكان المجون بالنسبة لها سلوكا من سلوك الظرفاء؟ (ص ٣٨) . قد يكون هذا صحيحا، ولكن كيف يوفق القارئ بين تظاهر ابي نواس بالمجون، وبين كون المجون تعويضا عن غياب الحياة، او هو نفسه الحيـــاة؟

كذلـك تعزو الباحثة تقرب أبي نواس من الخلفاء العباسيين ــ وهو الشيعي الصادق ــ الى التقية (ص ٤٢)، كما ان شعره الذي يظهر فيه ميله الى التفحش بالغلمان قد يكون ايضا "من قبيل التقية التي أراد من خلالها أن يبعد عنه وعن شخصيته الحقيقية الأفكار كي يبقى اسمه مقرونا بالمجون والظرف والتهالك على اللذة (ص ١٨٨) . اذا أضفنا الى هذه الأقوال أن مجون ابي نواس ــ في رأي الباحثة ــ لم يقصد لذاته كما ان شربه الخمرة كان وسيلة لا غاية، فاننا نصل الى نتيجة تثير الدهشة حقا، وهي أن أبا نواس بسلوكه وبشعره كان يعني غير ما يفعل أو يقول فهو حين يتهتك ويشرب الخمرة ويمجن فهو لا يريد هذه الأمور لذاتها انما يقصد الثورة على الظروف السياسية والاجتماعية والفنية والاخلاقية، وهو حين يتقرب من العباسيين فهو لا يريد فعلا هذا التقرب انما فعله مرغماً، وهو حين يتماجن ويتغزل بالغلمان فذلك لانه يريد طمس حقيقة شخصيته . ولنا الآن ان نتساءل : هل تبيح التقية بالمفهوم الشيعي الأصيل أن يفعل الانسان كل الموبقات ويتمتع ما شاء أن يتمتع، ثم يحيل ذلك على التقية؟ ألم يكن باستطاعة الشاعر ان يبتعد عن البلاط العباسي ليتخذ مواقف صريحة جريئة، كما فعل غيـره؟ ام انه آثر جمع المتناقضات لأنه كان يحب التنعم بالحياة، ففعل ذلك وأغرق، ثم بث في شعره بعض مواجده التي قد نفهمها على انهـا تأنيب الضمير؟

لقـد دللـت الباحثة على تشيع أبي نواس وحددت انتماءه الى الفرقـة المفضلية التي "اندمجت او ذابت فيما بعد بعهد الامام الحادي عشر الحسن العسكري، حين ظهور محمد بن نصير في القرن الثالث الهجري، وسمي أتباعها بالنصيريين، وظل هذا الاسم معترفا عليه تاريخيا حتى بدل باسم العلويين" (ص ٥٢) . وذيلت الكتاب بصور مخطوط ديوان أبي نواس تظهر فيها نعوت مثيرة للاهتمام حقا، مثـل "القطب الرباني حسن بن هاني"، او قول الناسخ في آخر صفحات الديوان : تمّ الديوان المبارك ..." . انها ولا شك أقوال تقنع القارئ بباطنية أبي نـواس، وبمكانته لدى العلويين . ولكن مع ذلك فيجب أن ننتبه الى قول الكاتبة :"وهناك

نقطة هامة نستطيع من خلالها ان نقف على تفسير آخر لتظاهره بالمجون والاستهتار، وهي تأثره بالاباحية الدينية التي هي فرع من اجتهادات بعض الفرق الباطنية، والتي تقضي بالاستهتار تمويها وتظاهرا" (ص ٥٣) . فالاباحية الدينية ليست من مبادئ التيارات الشيعية الرئيسية، بل هي "فرع من اجتهادات بعض الفرق الباطنية"، ولعلنا نستطيع ان نستنتج من كل ما سبق أن المكانة الخاصة التي يتمتع بها أبو نواس هي عند بعض فئات الشيعة فقط، وليس عند الشيعة عامة . ولو استطعنا أن نعرف موقف الشيعة الامامية المعاصرة منه لأمكننا تحديد مكانته في الفكر الشيعي بدقة اكثر .

أما عن الدور الذي لعبه أبو نواس مع الخلفاء العباسيين فتقول الكاتبة :

"انه كثيرا ما كان يسخر من الخلفاء تلك السخرية المبطنة التي كان يسعى من خلالها الى فضحهم وتعريتهم، حتى كان مجاهرة أبي نواس بشرب الخمر أمام الخليفة وتغزله بالغلمان كان يقصد من ورائهما تعرية الخليفة وكشف صورته الحقيقية أمام الناس" (ص ٤٠) . ثم تورد عدة أمثلة من شعره في مدح الأمين وتبرز ما فيها من سخرية وتعرية . وتشير في مكان آخر الى ما يخفف عن أبي نواس تهمة الشعوبية، بأنه "التزم في الحرب الأهلية التي قامت بين ابني الرشيد سنة ١٩٨ هـ الى جانب الأمين الذي تزعم العرب ضد المأمون الذي وقف بدوره الى جانب أخواله الفرس" (ص٣٤) . فهو من جهة يسخر من الأمين ويعمل على تعريته، ومن جهة أخرى يقف الى جانبه في الصراع الشعوبي، أي أنه يلتزم الجانب العربي من هذا الصراع . ولنا أن نسأل الآن : أليست تعرية الأمين هي خدمة جلى قدمها أبو نواس للمأمون، وكان بذلك يقف الى جانبه، دون أن يدري حتى قبل أن تصبح الحرب مكشوفة بين الأخوين المتخاصمين ؟ وهل في موقف كهذا ما يخفف عنه تهمة الشعوبية ؟

لا شك في أن تساؤلات كثيرة يثيرها كتاب الدكتورة أحلام الزعيم ستحفز بعض الباحثين على محاولة التعرض لها والاجابة عنها . ولعل من أهم هذه التساؤلات دور أبي نواس في بلورة التصوف الاسلامي مذهبا وشعرا . فلقد حاولت الدكتورة أن تثبت ريادة أبي نواس، خصوصا في الشعر الصوفي، اذ أكثرت من مقارنة شعر كبار المتصوفة من القرون التالية بشعر ابي نواس لتدل على تأثرهم به في مجال الرمز والصياغة وما أشبه . ويتضح من هذه المقارنة أن المتأخرين من شعراء الصوفية لم يجددوا الكثير في شعرهم، بل ساروا على نهج ابي نواس الذي وضع أسس الشعر

الصوفي كما يبدو . فلقد اتصل بجوهر الأشياء وتحدث عن المزاج والصرف . وكانت خمرته خاصة، وهي رمز وليست شراباً عاديا; كما التقى مع الصوفية في بعض غزله; ثم لأنه شيعي ، ولأنه يؤمن بالباطن ، الأساس الفكري لعقيدة التصوف ، فقد صار من الممكن اعتباره متصوفا رائدا .

أكان أبو نواس فعلا كل ما تقدم ؟

انه ولا شك شخصية متعددة الجوانب; تدل أخباره وأشعاره على اتجاهات متباينة في السلوك والتعبير . لذلك يحتمل شعره تأويلات مختلفة ، وهو بسبب هذه التناقضات أصبح موضوع بحث ، اجتهد في تحليله وتعليله كثير من الباحثين والمؤلفين . وعليه فليس عجيبا أن يكون هذا الشاعر موضوع كتابين خاصين به صدرا في سنة ١٩٨٠ هما هذا الكتاب الذي نتحدث عنه، وكتاب آخر بعنوان أبو النواس تأليف خليل شرف الدين.كما تناول الدكتور محمد زكي العشماوي في كتاب موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي الصادر سنة ١٩٨١، هذا الشاعر بالدراسة في فصل طويل . ذكرنا ذلك لنشير الى أن هذه الشخصية الفذة هي الآن محط أنظار الباحثين والمؤلفين لأن الكلمة النهائية لم تقل فيه حتى الآن . واذا كانت هذه الأبحاث الثلاثة المذكورة قد التقت في عدة نقاط، فقد تفرد بحث الدكتورة الزعيم من بينها بالجرأة والتحدي، وهما ميزتان أساسيتان للبحث العلمي المبدع .

وأخيرا ، بقيت لنا كلمة . لقد أثبتت المؤلفة في نهاية بحثها نيفا ومائة مصدر ومرجع ، لاحظنا خلوها من المراجع الأجنبية ، باستثناء المترجم منها الى العربية . وان بحثا يهدف الى قلب مفاهيم كثيرة مألوفة كان عليه ان يعتمد على أوسع ما يمكن من الأبحاث العلمية . وقد شارك المستشرقون بدراسة علوم الشرق والتأليف فيها ، وللكثير منهم فضل كبير على دراسة الأدب العربي ،ولا حاجة لنا بذكر الأسماء . الا ان مستشرقا المانيا واحدا لا بد من ذكره هنا ، وهو Ewald Wagner الذي أصدر سنة ١٩٦٥ كتابا بالألمانية بعنوان *Abū Nuwās* وكان قد أصدر قبل ذلك ، سنة ١٩٥٨ ، طبعة علمية محققة لديوان أبي نواس . وهذا يعني أن دراسته عن الشاعر اعتمدت أساسا على ديوانه، ثم على المراجع الأخرى ، ولقد ذكر ديوان أبي نواس بتحقيق فاغنر بين مصادر البحث الا أن دراسة هذا المستشرق عن الشاعر لم يشر اليها مطلقا . ولا نشك في أن الفائدة ستكون أعم لو تسنى للدكتورة الزعيم أن تطلع على البحث المشار اليه .

جورج قنازع